خمسة ايام على الاقدام

باحص — قرطبا — النيري — مجدل الماكورة — الماكورة — اللقالق — بلحة — بيت الشاعر — شاتين — حوب — ارز تنورين — الحدث — الديمان — حصرون — بقرقاشا — بشري — الارز — ضهر القضيب — عيناتا — اليمونة — شليفا — بعلبك

بقلم فؤاد افرام البستاني

١

في عصر السيارة تقطع بك المئة الكيلومتر في الساعة، مستريحةً ومستريحاً، فتنقلك، على الطرق المعبّدة، من مجازر الامواج الى مساقط الثلوج بسرعة تنسى معها ماهية الوقت، وكمية المسافات؛ في عصر الفنادق الانيقة، القائمة قصوراً فخمةً على قمم لبنان، المزدانة بجميع مرافق الرخاء ومظاهر الترف، تستقبلك موائدها الفاخرة باطعمتها المزجاة، وانبذتها المعتّقة، وتنتظرك أسرّتها الوثيرة لتغرق في حشاياها بين الآمال والاحلام؛ في هذا العصر يستغرب «العصريون» ان يسير الناس مسافة خمسة ايام على اقدامهم، في وعوثة الرمال، ووعورة الجبال، حتى اذا برّح بهم التعب حطّوا عصيّهم — وليس في التعبير شيء من المجاز — الى جانب عين يستقون ماءها الزلال، وبسطوا سُفرتهم يأكلون ما تيسر لهم من المقدّدات وما وُفّقوا الى شرائه من الفواكه والخضراوات؛ واذا ادركهم الظلام، خيّموا — وهذا التعبير ايضاً غاية في الحقيقة — ضاربين اطنابهم، فافترشوا الارض، وتوسّدوا الحجارة. هذه الطريقة في السير قليلاً ما نفهمها في عصرنا، بل قليلاً ما نفهم معنى «السفر» الحقيقي. وانّ لهذه اللفظة عند العرب جوّاً خاصاً من الاتعاب والملذات يهوّل بتمداد العقبات والمصاعب، ويلّق بالرغبة في المغامرات واكتشاف الجديد من المناظر، حتى قال البعض: «السفر قطعة من العذاب!» فاستدرك عليهم غيرهم مستعينين بالله على ما يولده من

المشاقّ قائلين : « لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لاصبحوا على ظهر سفر ! » كل هذا مع ما يجرّه من فائدة للابدان من حيث انه رياضة نافعة ، ومن ترويض للاخلاق بجعله الارادة تقوى شيئاً فشيئاً على العقبات ، ومن فائدة للعقل بما يبسطه امامه من المناظر الجديدة ، والآثار المختلفة ، والبلدان المتنوّعة ، والبيئات المتباينة لهجةً وعادةً وتقاليد ، كل هذا يكاد يُنسى اليوم اذ يتحوّل « السفر » ، في بلادنا خصوصاً ، الى مرور سريع على اجنحة السيارات.

ولكننا شئنا ان « نسافر » في جهات لبنان الشمالية والشرقية ، فقطعناها على الاقدام من جرود قرطبا الى سهول بعلبك ، في مدة خمسة ايام جمعنا في خلالها بعض التأثيرات والمعلومات . فرأينا بسطها لقرّائنا الكرام فيشاركوننا بما تعلّمناه ، ان كانوا يجهلونه ، ويتحقّقون معنا فوائد السفر على الاقدام ، فيباشرونه اذا سنحت لهم الفرصة.

* * *

اجتمعنا في كلية القديس يوسف ، ثلاثة عشر « مسافرًا » ، مساء الجمعة في الثلاثين من آب الفائت . ثلاثة عشر ! ونهار الجمعة ! دافعان الى التشاؤم قويّان ، يكفي الواحد منهما ليثبط الهمم الماضية اذا كان اصحابها ممن يتراجعون امام المصادفات . غير انه لم يكن للتشاؤم مكان في عقليّاتنا اذ ذاك ، وكلها مندفعة حماساً الى السفر ، تائقة لاختبار ذاك النوع من الرياضة ، حتى اننا لم نكن لنشعر بثقل هواء بيروت الرطب ، لولا ميازيب العرق المتصبّبة الى اطرافنا . وكان معنا اثنان من الآباء اليسوعيين اعتادا امثال هذه الرحلات ، فاعدّا برنامج رحلتنا على غاية ما يُرام من الدقة والترتيب.

اليوم الاول

بيروت — بلحص — قرطبا — المنيري — المجدل — زحلة الناقورة — اللقلوق

دقّت الساعة الرابعة صباحاً ، واذا بنا نبادر الى الرتاج الخارجي منتظرين السيّارات التي ستقلنا الى منتهى طريق بيروت — جبيل — قرطبا ، لاننا لم نرَ من الضروري ان ننهك قوانا مشياً على طريق البحر ، في ذاك الحرّ المذيب . . .

ولكن ما اصاب اولئك السرّاقين؟ ها قد مرّ ربع ساعة على الميعاد، وربع آخر، وربع ثالث، والسكوت لا يزال مخيّماً في الشارع، والتضجر يأخذ منّا شيئاً فشيئاً. فكانت تلك اولى المعاكسات، واولى نتائج العدد المشؤوم. على ان الانتظار لم يطل الى ما وراء ذلك، فدوّت اصوات الزمّارات، واذا بالسيارات تقف بعجب وخُيلاء متأهبة لتعويض ما فُقد من الوقت، فركبنا، وسارت تنهب بنا الشوارع وتوقظ النوّام. حتى اذا خرجنا من المدينة على طريق الاسفلت، اهاب شيطان المسابقة بالسرّاقين فلبّوا دعوته، دون انتباه لنا. فكنّا نرى عقرب مقياس السرعة يتنقّل بين التسعين والمئة والعشرة، فنذهل وتحوّل ابصارنا فنلمح اشجار الطريق تنشب في شبكات اعيننا كالحراب المتلاحقة، والبيوت تتراجع بسرعة حتى تغور في الابعاد. فاستسلمنا لمشيئة الله ومشيئة السرّاقين، ولم نشعر الّا ونحن على مقربة من جونية.

وبعد ان قطعنا برجا، او طبرجا، فاعجبنا، وما كدنا، بجونها الطبيعي الصغير الذي كان آمن مرسى للسفن الفينيقية عند اشتداد الأنواء؛ ومررنا على نهر ابراهيم ذي المصبّ الملتوي الجميل، المذكر بدم ادونيس المسفوك، وبرغبة الفينيقيين في الخرافات الدينية؛ اشرفنا على جبيل، فبدت ببرجها العالي، وآثار حفرياتها الجديدة، واعمدة هياكلها، تحدّث عن عظمتها الدينية الماضية اذ كانت مركز العبادة الفينيقية ومزاراً يحجّ اليه جميع الفينيقيين. بيد اننا لم نحجّ اليها هذه المرّة، بل تركنا طريقها قبل الوصول، ذاهبين صُعداً في الطريق المؤدّية الى طرزيا مارّين من جهة دير البنات، منحرفين نحو اليمين، سائرين اكثر من ساعة في جرود لا شيء فيها يستحقّ الذكر سوى وعورة الطريق، وهي في بعض الانواع اشبه بطريق الحافر منها بطريق السيارات، وكثرة الحجال التي كانت «تتكلّم» في تلك القمم، حتى اذا سمعت هدير محرّكاتنا، تطايرت، فتنقل بعضها ببطء من زاوية الى اخرى، وهبط غيرها متزحّلاً الى الاودية القريبة.

ولم يكن نبع طرزيا الفوّار ليوقفنا طويلاً، اذ كان قد ارتفع النهار، وتعالت الشمس منذرة بحرّ شديد، فتركناه الى منتهى طريق قرطبا، بعد

صعوبات جمة ، ومحاورات مع السوّاقين الذين امتنعوا مرّتين عن مواصلة السير بحجة ان الطريق لا تُسلك . على انها سلكت اخيراً فوصلنا الى منتهاها ، في اعالي قرية تُدعى بلحص على مسيرة ساعة من قرطبا ، فترجّلنا[1]. وكنّا قد كتبنا طالبين بغلًا لحمل امتعتنا ، فرأينا بانتظارنا ، بغلين وحمارين ، مع مكاريين اسم الاول يوسف والثاني عازار (انظر الرسم ١) فقلنا: زيادة الخير خير . وسرنا نضرب في رمال بيضاء تلتهب تحت ارجلنا حتى اطللنا على قرطبا فقصدنا عينها . وكانت اول عين شربنا منها في رحلتنا . ومن ثمّ لم ندع نبعاً الّا ذقنا ماءه .

هناك ، امام العين ، تحت التوتة ، على مسمع من بعض شبّان الضيعة ، اسمعنا عازار خطاباً بليغاً في مشقّات حياة المكارين ، وكثرة نفقات الدواب عامة ، وبغلته خاصّة ، لاسيما في هذا العصر الذي كثرت فيه السيّارات فزاحمت الدوابّ وكادت تقطع رزقها . ولم يكن سبب ذلك سوى اننا اعطيناه اجرته من بلحص الى قرطبا ، وشكرناه قائلين اننا نستغني عنه في ما بقي من الطريق ، لاننا لم نكن بحاجة لغير بغل واحد ... فكانت تلك خاتمة خير ليوسف الذي فرك يديه فرحاً ، وحمّل الامتعة كلها على بغله بسرعة كلية ، وسار امامنا على طريق مجدل العاقورة .

ومن تلك النقطة بدأنا نشعر بحسنات السفر على الاقدام ، وبأتعابه ايضاً . امّا الاتعاب فندع وصفها لفرصة اخرى . وامّا الحسنات فمنها ما تقدّم ذكره ، ومنها ان السفر ينشط في عقلية المسافر ذاك الفضول العلمي ، وهو اول شرط لاكتساب المعارف كما يقول الفلاسفة ، فيُصبح ولا غاية له الّا ان يسأل عن كل ما يُصادف . وهكذا اصبحنا سؤالًا حيًّا جائلًا ، بل ثلاثة عشر سؤالًا ، لا نلتقي بشخص الّا ونسأله ، بعد السلام:

— ما اسم هذه القرية ? — واسم تلك الظاهرة امامنا ? — وكم عدد

[1] امّا اليوم فقد وصلت طريق السيّارات الى قرطبا ، ودُشّنت بعد مرورنا بنحو اسبوعين . فكان اول ما دخلها من السيارات سيّارتنا بشاره منصور سالم واخيه طانيوس القرطباويين ، في ١٦ ايلول الفائت . وقد نظم حضرة الاب اغوسطين سالم القرطباوي قصيدة بعنوان « الرغائب » يذكر فيها من كان لهم اليد البيضاء في شقّ تلك الطريق واقامها

سكانها ؟ — اي شيء عندكم يستحق الذكر ؟ — الا يوجد عين ماء في هذه الجهات ؟ — ماذا تحمل يا عم ؟ — الى اين تقصدين يا خالة ؟ — الى غير ذلك من الاسئلة المتنوعة قالباً وغايةً ، وكان اكثر ما يُطرح السؤال الآتي :

— كم بقي امامنا من المسافة الى القرية الفلانية ؟

فكان غير المنشطين — وهم قليلون لسوء الحظ ! — يذكرون المسافة الحقيقية على التقريب . وكان المنشطون المحبون ، جازاهم الله خيراً ، يجيبون بلطف ذاكرين خُمس المسافة الحقيقية ، او ربعها ، او ثلثها . فيسيئون الى المسافرين من حيث لا يقصدون ، اذ يدفعونهم الى اليأس والتخاذل ، اذا انتهى الوقت الذي عيّنوه ولم يبلغوا الى القرية المطلوبة .

هذا ما حدث لنا طول تلك الايام الخمسة . وكان اول اسئلتنا عن مجدل العاقورة ، فكنا نسمع الناس يقولون من قرطبا : هي على مسيرة ساعة ، او ساعة ونصف ، او ساعة الا ربع . فكانت النتيجة اننا سرنا اكثر من ثلاث ساعات . . .

على الطريق بين قرطبا والمجدل مزرعة صغيرة تدعى المنيدي ، فيها عين ماء لا بأس بها . وعلى مسافة منها طلل روماني لم يبقَ منه قائماً سوى الباب . (الرسم ٢) وهو من الحجر المصفر بحجم كبير ، على الطراز الروماني المعروف ، يعلو نحو الثلاثة الامتار ؛ وقد نبتت الى جانبه جوزة كبيرة خيّمت عليه بظلّها الوارق فكان له منظر جميل ضمن ذاك الإطار الاخضر . اما الطلل نفسه فيُستنتج من بعض حجارته التي لا تزال لاصقة بالاساس انه كان مستطيل الشكل ، متوسّط السعة . ولا نخاله كان هيكلاً لانه اصغر من ان يصلح للعبادة ، بل نظنه كان محطة لزائري هياكل افقا من نهر ابراهيم ، وهو على الطريق . ومهما يكن من الامر فاننا نلفت اليه نظر مصلحة الآثار في جمهوريتنا ، قبل ان ينقل اهل الجوار ما بقي فيه من الحجارة الصالحة للبناء .

نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، كنا نرتقي مرتفعات المجدل بين الاراضي المزروعة بطاطا ولوبياء وسائر انواع الخضراوات ، وهوارب الماء الخرّارة في السواقي . فلم نكن نتمالك الاعجاب بخصب تلك الارض وجمال تلك القمم التي

تكثر فيها اشجار الجوز ، لكننا لم نكن نتمالك ايضاً شدّ بطوننا من الجوع ، والاستناد الى عصيّنا من التعب ، مفتّشين عن مكان يجمع بين الماء والظلّ فنحتلّه بضع ساعات. ونحن كذلك ، اذا بحضرة الشيخ روفائيل جرمانوس يهرول نحونا ، وكان قد علم بمرورنا من هناك ، بواسطة ولديه وهما من طلبة كلية القديس يوسف . فقادنا الى منزله العامر ، واورانا مظهراً جليّاً للضيافة اللبنانية بكل ما يحيق بها من البساطة والبشاشة (انظر الرسم ٣) . ولشدة رغبته في اطالة اقامتنا عنده ، اقبل يهوّن علينا مشقّات الطريق بين المجدل واللقلوق ، حتى لم يبقَ بينهما الّا مسيرة ساعة ونصف « بالكثير » . فشكرنا له ضيافته وسرنا نحو الساعة الثالثة ، برفقة ولده فيليب ، فقطعنا العاقورة حيث دهشنا حتى الذعر لدى مشهد تلك الزحلة الهائلة التي تمتدّ على مسافة ساعتين طولاً ونحو نصف ساعة عرضاً . وقد علمنا انها خربت ثلاثين بيتاً ، وجرفت جميع الارزاق في تلك الجهة من قمة الجبل حتى النهر في اسفل الوادي . وكان يتراءى للناس ، زمن الانهيار ، كثير من الاشجار الضخمة تظهر في القعر ، ولكنها لا تلبث ان تغور . اما اليوم فلا يُرى سوى الارض المقلوبة سافلها عاليها على هيئة تلقي الرعب في قلوب المتأملين . واما اسباب ذلك فترجع ، على ما نرى ، الى ان تلك الارض من طبقات مختلفة تكويناً جيولوجياً حتى لم يمكنها ان تتماسك بل بقيت منفصلة ، الى ان تخلّلت المياه فوارقها ، فزلزلت اساس الاقسام العليا ، وهبطت بها ذاك الهبوط العظيم .

وما زلنا نضرب في تلك الجبال مستغربين كيف لا نرى اللقلوق ، مع اننا مشينا اكثر من ثلاث ساعات ، حتى تأكدنا اخيراً ان ساعة الشيخ جرمانوس اكثر من ستين دقيقة ، وانها موافقة لساعات جميع من كنا نسألهم عن المسافات في رحلتنا . على ان ذاك النهار لم يكن جدّ متعب لولا عاصفة هوجاء فاجأتنا في العاقورة ، فذرّت في عيوننا تراباً كثيفاً ، وأصمّت آذاننا بصفير مزعج ، حتى خلنا ان الارض سترحل بنا ثانية . وقد اضرّت بنا تلك العاصفة حتى في اللقلوق ، قبل وصولنا ، وذلك ان حضرة اسعد بك يونس ، مدير الدوائر العقارية ، كان قد اعدّ لنا مائدة انيقة في مضرب مزخرف ، في مصيفه باللقلوق ؛ فرمت العاصفة

المضرب وكسرت معظم الآنية . لكن ذلك لم يمنعه ان يستقبلنا مع حضرة عقيلته الفاضلة استقبالًا جمع بين اللطف والذوق ، وكان خير ما نتوق اليه بعد اتعاب ذاك النهار . فقضينا تلك الليلة في مضربه الكبير .

اليوم الثاني

اللقلوق — مرج البساط — رأي في مضارّ الاصطياف — بلده — بيت الشاعر — شاتين — دير حوب — أرز تنورين — المدث — الديمان

صباح الاحد في اول ايلول ، قمنا باكرًا لا نكاد نشعر بتعب ، فاحتفل الاب مارغو ، احد رفيقينا اليسوعيين ، في المضرب بقدّاس حضره معنا اسعد بك وعائلته ورجاله المزارعون في تلك الجهات (انظر الرسم ٤). ثم زرنا ارزاقه وما جاورها ، وكلها مزروعة بطاطا معتنًى بها كل الاعتناء ؛ وشربنا من « النبع البارد » ، ثم أشرفنا على محل يُدعى « مرج البساط » ، وهو مرعى خصب كان الامير بشير يُرسل اليه خيوله في فصل الصيف ، ثم يأتي فيتفقدها حيناً بعد حين . وبعد ان اطلعنا على خزّان متوسّط يبنيه اسعد بك لجمع مياه الشتاء من تلك السواقي المتعدّدة ، فيمكنه ريّ الكثير من الاراضي الصالحة لزرع البطاطا في شهري تموز وآب ، صعدنا الى قمة خليتنا بما تُشرف عليه من المناظر الطبيعية من صخور شاهقة ، واودية لا يُرى قعرها ، وقمم متتابعة متضائلة حتى تتلاشى بعيدًا على ستار من غيوم الافق الشاحب متصل بصفحة البحر الاغبر . فقال اسعد بك انه عازم على بناء بيت في ذاك المحل ، فتمنى احدنا لو وصلت طريق السيارات الى تلك النقطة وبُنيت فيها الفنادق يؤمّها المصطافون . فاجابه البك : انا لا اتمنى ذلك ! واذ دهشنا لهذا الجواب ، قال ما ملخّصه :

اجل ! ان الاصطياف مضرٌّ باهل هذه النواحي . واليكم البرهان : هذه الارض غاية في الخصب ، وهي مشغولة كلّها ، واهلها قانعون بمعيشتهم ، لان ما يوجه افقر فلّاح سنويًا من محصول البطاطا يكفيه لعيشة لا بأس بها . امّا اذا وصلت اليها طريق السيارات ، واقبل عليها المصطافون ، فازدادت الحركة ، فانكم ترون اذ ذاك جميع الفلاحين يبيعون ارزاقهم ويشترون باثمانها سيارات يقلّون بها المصطافين . فيكثر المال بين ايديهم ، وهم يظنونه كلّه ربحًا ،

اذ لا يتنبهون لاستهلاك ثمن السيارة ، وتعطيل الدواليب ، وما شاكل . حتى اذا انفقوا كل ذلك وتعطلت ماكنتهم ، لم يجدوا سبيلاً للرزق الّا طريق المهاجرة ، فيكون الاصطياف ضرّهم من حيث اردنا لهم النفع !

بعد ذلك زرنا لقلوق العرب فدخلنا مضرب شيخ الرعيان النازلين هناك ، فاستقبلنا ببشاشة ، وبسط لنا «المفتقة» وهي سجادة يشتغلونها من الصوف ، وارانا جرن اللبن المشهور . ثم انحدرنا قاصدين دير حوب ، واسعد بك يؤكد لنا انه لا يبعد اكثر من ساعة الى ساعة ونصف «بالكثير» . على اننا تأكدنا ، بعد ان سرنا نحو الثلاث ساعات ، ان ساعة اسعد بك من «ماركة» ساعة الشيخ جرمانوس ! مررنا في طريقنا على بلعه واسمها مشتق من «البواليع» الكثيرة في تلك الجهات ، وعلى بيت الشاعر التي لم نجد فيها ما يهيج الشعر ، وعلى شاتين ، حتى وصلنا الى دير حوب ، وهو من اديرة الرهبانية البلدية اللبنانية . وكان رهبانه بانتظارنا ، فحيّينا رئيسهم حضرة الاب الفاضل جبرائيل يونس ، وقبلنا ضيافته الكريمة التي بالغ فيها حتى تجاوز حدود شكرنا .

ونحو الساعة الثالثة بعد الظهر ودّعناه ، فاصحبنا باثنين من رهبانه يدلّاننا على طريق الحدث ، وسرنا صعداً في تلك الجبال الشاهقة الى ان كدنا نبلغ القمة القائمة بين الدير وأرز تنورين . في ذاك الجبل الشاهق الاصلع ، حيث لا بيت نلجأ اليه ، ولا كهف ندخل فيه ، ولا شجرة نستظلّ باغصانها ، فاجأتنا عاصفة ولا عاصفة الامس ، واذا بالشمس تحتجب ، وبالسماء تربد آفاقها بالغيوم الدكناء المتثاقلة اطرافها بالمياه الغزيرة تهدّد من بعيد بهزيمها المرعب . وما هي هنيهة حتى شقّ البارق سواد الافق ، وتتابعت طلقات الرعد ، وانفغرت افواه السماء عن بردٍ متتابع كالبندق الكبير ، تلته ميازيب من المطر كالحبال المتصلة . حتى غدت ثيابنا كالمغسولة جديداً ، وخالط ماء المطر ماء العرق على اجسامنا . ونحن مع ذلك نتابع السير خوفاً من مغبة ذاك الحادث ، اذا ما وقفنا وتعرّضنا للهواء . الى ان ادركنا الليل في غابات أرز تنورين ، وكان الراهبان قد فارقانا راجعَين الى ديرهم ، فظللنا نخبط وحدنا في تلك المجاهل متكلين على معرفة يوسف بالطريق ، ويوسف يسلكها لاول مرة في حياته . على اننا وقعنا ، لحسن

الخط ، على طريق مشقوقة من الحدث الى بعلبك. فتبعناها فرحين ، ولا دليل لنا سوى انها تنتهي بالحدث ... ومن هناك انتقلنا الى الديمان.

في زاوية الديوان الاسفل ، على طرّاحة وثيرة ، كان شيخ لبنان جاثماً يمثل المهابة الدينية ، والعظمة المدنية . فدخلنا عرينه بخشوع ورهبة ، وقدّمنا اليه سيادة الحبر المفضال المطران عبدالله خوري . فكان البطريرك الكبير ، وقد اثقلته السنون والامجاد ، واتعبته خاصّة رسميات ذاك النهار الواقع فيه عيد لبنان الكبير ، يجيل فينا عينين ملؤهما الحياة والعذوبة ، كأنه يبارك رحلتنا ويخفف من اتعابنا . وبعد ان شجّعنا ببعض كلمات ، اشار الى حضرة الخوري بولس طعمه الذي استقبلنا بكل حفاوة ، فقادنا الى المائدة ومنها الى غرف النوم ، وكم كنّا بحاجة الى ذلك...

اليوم الثالث

الديمان — حصرون — بقرقاشا — قاديشا — بشرّي — الارز

ظهرت سماء اليوم التالي صافية الاديم بعد تلك العاصفة ، فبدت لنا مشاهد ساحرة من سطح الديمان : هناك في منحدر الجبل ، فوق ضفة نهر قاديشا ، في معقل تزلق عنه النسور ، دير قنوبين حصن البطاركة القديم ، الذي انتقلوا اليه سنة ١٤٤٠ من دير سيدة ميفوق ، وظلّوا فيه الى عهد البطريرك يوسف الخازن ، سنة ١٨٤٨ ، وهو الذي جعل سكناه في بكركي شتاء والديمان صيفاً . ولم يكن الديمان اذ ذاك الّا داراً بسيطة . امّا هذا القصر الفخم اللائق حقّاً بمقام شيخ لبنان ، فهو من آثار غبطة البطريرك الحالي . وهناك على يمين الناظر الى قمة الجبل ، تظهر حصرون ، وبزعون ، وبقرقاشا ، وعلى يساره بشرّي ، وحدشيت ، وبلوزه ، تبدو جميعها بمبانيها الجميلة ذات القرميد الاحمر ، تتدرّج بعضها فوق بعض ، غارقة بين الاشجار الخضراء الباسقة كالسرو والحور والعرعر.

قطعنا القرى الثلاث الاولى ، مجارين وادي قاديشا ، وشربنا من عين مالك في بقرقاشا وهي من الذّ ينابيع لبنان الشمالي ، حتى اذا وصلنا الى منعطف الطريق ، عند مبتدأ الوادي ، دهشنا لمنظر من الصعب على الانسان ان يجد له ثانياً . كيف لا وقد اجتمعت فيه جميع منبّهات التعجب : من قمة

ضهر القضيب الاجرد تعلو شامخة في اديم السماء الازرق الصافي ، الى غابة الارز تنبسط مرجاً فسيحاً اخضر مسوداً في سفح جبل المكمل الاغبر ، الى قسم من النهر يتدفق مزبداً فينثر كلله البيضاء المرنة في مجرى تكتنفه الارض الصلصالية الحمراء ؛ الى تلك القرى المنتشرة عن الجانبين كانها آثار زخرفتها يد الطبيعة بالالوان اللطيفة ؛ الى وادٍ لا يكاد يدرك الطرف اعماقه الرهيبة ، اهلت حناياه بكهوف ومغاور كثيرة لا تزال تتصاعد منها رائحة القداسة ، اذ كانت مأوى لقديسي الرهبان والنساك الذين تركوا للبنان ثمار فضائلهم الشهيرة ، ولذلك الوادي اسمهم المقدس فدُعي « وادي قاديشا »

وعلى تلك الطريق الجميلة ، في فم الوادي ، شاهدنا اجلى مظهر لتعاون الطبيعة والصناعة العصرية الا وهو المعمل الجديد لتوليد الكهرباء من نهر قاديشا ، وقد قامت به شركة قاديشا الوطنية ، على ما وقف في وجهها من الصعوبات ، فذللتها ونجحت . وها ان انوارها الكهربائية تضيء اليوم مدينة طرابلس ، بعد ان انارت القرى المجاورة في لبنان الشمالي. اما المياه فتصل من النهر الى المعمل اولاً بواسطة نفق يبلغ طوله الكيلومتر يصبها في خزّان طوله مائة متر بعرض معدّله نحو الاربعة الامتار ، وعمق معدّله نحو الثلاثة الامتار. ومن هناك تنحدر في قناة طولها ستمائة متر ، وقطرها سبعون سنتيمتراً ، فتدير آلتين تولد كل منهما قوة ١٢٠٠ حصان.

لم تدهش اذ شاهدنا قرب المعمل ، حضرة الشيخ يوسف عيسى الخوري ، وقد اقبل لملاقاتنا من بشرّي ، فاتى ببرهان جديد على ما نعهده فيه من الحمية والمروءة والاخلاص . وقادنا الى منزله العامر حيث عرّفنا الى اهله الكرام ، الذين اهتموا كلهم باستقبالنا وإضافتنا.

ومن هناك سرنا صُعداً الى غابة الارز ، والشوق لمرأى تلك الشجرات الجبَّارة ، الشاهدة على البشرية منذ الوف السنين ، يحملنا فنطير مسرعين على الرغم من شدّة الحرّ ، ووعورة الطريق. لاننا لم نشأ ان نتَّبع طريق السيارات الجديدة ، حتى لا نتأخر زمناً ، ولو قليلاً ، عن مشاهدة أرز الربّ.

(لها بقية)